والحديد، التي تحمل كثافة التاريخ، وثراء الازمنة القديمة، لم تعد تعني بالنسبة لي شيئا جديد أو مثيرا. عدت إلي البلحات والقناطر وارصفة الموانئ الصغيرة، ورأيت مظاهر الحياة المليئة بالمرح، فبدا لي انني لا اري سوى المظهر الخادع البراق، الذي يخفي محتوى أكثر تعتيما. ان فينيسيا لا تظهر لزائرها الاماكن التي تدفن فيها موتاها ولا الملاجئ التي تضم المعتوهين وضحايا الامراض العقلية من رجالها ونسائها، ومعنى ذلك ان لديها اشياء اخري تخفيها، لكي لا يري الزائر غير هذا الوجه العامر بالأصباغ. صارت عيناي لا تلتقطان الا مشاهد المشردين من ضحايا الشراب الذين يتكومون في الاركان المعتمة، والاعشاب الميتة التي يدفع بها الماء فتصنع اكداس العفونة في نتوءات وشقوق الارصفة. وذاكرتي لا تستحضر الا الروايات التي تتحدث عن مجرمي ولصوص وقراصنة فينيسيا، بل إن كازانوفا نفسه، الذي باعته فينيسيا للعالم، باعتباره العاشق الاسطوري، لم يكن الا جاسوسا رخيصا. حتى هذه الفتاة، التي تعري ساقيها وصدرها وكتفيها، وتستعرض امام الناس سحر انوثتها، من قال انها لا تحمل مرضا جنسيا. أليست فينيسيا هي المدينة التي يقصدها الاغنياء من ضحايا هذه الامراض لقضاء ايامهم الاخيرة.

كنت اعرف انني اقسو على فينيسيا، ولا أستعرض من دفترها الكثير الالوان، إلا صفحاته السوداء، التي أضيف اليها سوادا تفيض به روحي. انني بذلك أبادلها انتقاما بانتقام، لكي اتحرر قليلا من عبء هذا الظلم الذي ألحقته بي.

عندما انتهى النهار وعدت إلى غرفتي، كنت في حالة من الإنهاك أسلمتني إلى نوم لم افق منه الا في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي. اغتسلت وتناولت افطاري على مهل، دون ان أجد رغبة تدفعني إلى معاودة السياحة في فينيسيا، وكأنني نفضت يدي من هذه المدينة نهائيا. كدت انسى موعدي مع فتاة الوكالة، بعد ان احتسبتها جزءا من هذه المدينة التي طرحتها من حسابي.